محاضرة في الأدب الأندلسي / الدراسة الأولية / أعدها الدكتور علي مطشر نعيمة

عنوان المحاضرة : تطور شعر المديح وتحولاته في عهدي الطوائف والمرابطين

أولا : عهد الطوائف :

انتعش شعر المديح في عهد الطوائف بسبب تشجيع الأمراء للشعراء وتنافسهم في جذب الشعراء إليهم , فراج سوق المديح في هذا العصر , وشهد تطورا وتحولات واضحة يمكن رصدها في النواحي الآتية :

1 – استشعر الشاعر الأندلسي في عهد الطوائف حاجة أمراء هذا العصر إلى المديح كون الشعر آنذاك يمثل أهم وسيلة إعلامية يحتاجها كل أمير و حاكم للترويج لدويلته الجديدة , وتثبيت دعائم حكمه , فكان أن استغل بعض الشعراء هذه الحاجة فأخذ يشترط على الممدوح حجم العطاء المناسب لكل قصيدة , ويُروَى في هذا الصدد عن الشاعر إدريس بن اليماني أنّ الأمير المعتضد بن عباد أمير إشبيلية طلب منه أن يمدحه , فأجابه قائلا : ((أشعاري مشهورة , وبنات صدري كريمة , فمن أراد بكرها فقد عرف مهرها)) , وكانت جائزته مائة دينار .

2 – وظف بعض الشعراء الحيلة للحصول على عطاء الممدوح , ومن أشهر شواهد ذلك قول الشاعر ابن وهبون :

قلَّ الوفاء فما تلقاه من أحدٍ ولا يمرُّ لمخلوقٍ على بالِ

وصار عندهمُ عنقاءَ مُغربةً أو مثلما حدّثوا عن ألف مثقالِ

فكان أن أنشد أحد الحاضرين هذين البيتين في حضرة الأمير المعتمد بن عباد أمير إشبيلية , فاندهش المعتمد وقال : لمَن هذين البيتين ؟ فقيل له : هما للشاعر ابن وهبون , وقد كان ابن وهبون أحد شعراء بلاط الأمير المعتمد , فقال المعتمد : هذا

والله هو اللؤم البحت , شاعر من شعرائنا , وخادم من خدّامنا يتحدث بمثل هذه الإحدوثة ! وأمر باستدعاء الشاعر , وقال له : أنت صاحب هذين البيتين ؟ فأجاب الشاعر : نعم , فأمر له المعتمد بألف مثقال , وقال له : الآن حدّث بها لا عنها !

يتضح من هذه الرواية – على افتراض صحة ورودها بهذا الشكل – مكر الشعراء , ودهائهم في ابتكار أسلوب جديد للتأثير في الممدوح والحصول على العطاء المناسب مع مراعاة أنّ مثل هذا الأسلوب لا ينجح إلا مع أمير مثل المعتمد شاعر وناقد متذوق للشعر ويمتلك الحاسة السادسة التي تلتقط ما وراء الألفاظ من معانٍ .

3 – ومن مظاهر تحولات المديح في هذا العهد اختلاط المديح بالغزل كقول ابن عمار يمدح الأمير المعتضد بن عباد : ة

أندى على الأكباد من قطر الندى وألذُ في الأجفان من سنة الكرى

قدّاح زند المجد لا ينفك من نار الوغى إلا إلى نار القِرى

4 – وشهد المديح في هذا العهد تطورا على مستوى البناء الفني , من ذلك قول محمد بن عبادة ابن القزاز مادحا أمير المرية أبا صُمادح :

نفى الحب عن مقلتيَّ الكرى كما قد نفى عن يديَّ العدمْ

فقد قرَّ حبك في خاطري كما قرَّ في راحتيك الكرمْ

ومنه قول ابن اللبانة يمدح مبشر العامري :

وضحتْ وقد فضحتْ ضياء النيّرِ فكأنما التحفتْ ببشر مبشّرِ

وتبسّمتْ عن جوهرٍ فحسبتُه ما قلّدتْه محامدي من جوهرِ

ويعلق المراكشي على هذه الأبيات قائلا : ((قصيدة ركب فيها طريقة لم أسمع بها لمتقدم ولا متأخر , ذلك أنّه جعلها من أولها إلى آخرها : صدر البيت غزل وعجزه مدح)) .

ثانيا : عهد المرابطين :

يتمثل تطور شعر المديح وتحولاته في عهد المرابطين بالنواحي الآتية :

1 – استوحى شاعر المديح في عهد المرابطين اللثام الذي يضعه المرابطون على وجوههم فرأى فيه جانبا جماليا وقيمة خلقية :

وتلثموا صونا لرقة أوجهٍ جُعِلَ السماحُ شعارها ودثارها

ولابن خفاجة معنى قريب منه :

يشدُّ اللثامَ على صفحةٍ يُرى البدرُ منها بمرقى زحلْ

فلم أدرِ والحسنُ صنوٌ له أأبداُ بالمدحِ أم بالغزلِ

2 – إنّ قول ابن خفاجة في البيت الثاني إيحاء بالرغبة في التخلص من المقدمة الغزلية , وهو ما صرّح به في بيت آخر قائلا :

بمثلِ علاك من ملكٍ حسيبِ عدلتُ إلى المديح عن النسيبِ

3 – مزج الرثاء بالمديح , من ذلك قصيدة لابن خفاجة مطلعها :

كفانيَ شكوى أن أرى المجدَ شاكيا وحسب الرزايا أن تراني باكيا

4 – الدعوة إلى المساواة بين الشاعر والممدوح كقول الأعمى التطيلي :

شعري وجودك يا أبا العباسِ مثلانِ قد سارا بنا في الناسِ

أدنى سماحُك كلَّ شأنٍ نازحٍ وألان شعري كلَّ قلبٍ قاسِ

هذه الأبيات تلتقي مع أبيات ابن القزاز وابن اللبانة في أنّها تمثل محاولة للشاعر لإعلان مساواته للممدوح حين يمنح الشاعر نفسه مساحة زمنية من القصيدة يعبر فيها عن ذاته غزلا أو فخرا , وهي مساحة مساوية تقريبا للمساحة التي يشغلها المديح للأمير أو الحاكم .

المصادر :

1 – الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة , د. منجد مصطفى بهجت

2 – ديوان ابن خفاجة , تحقيق الدكتور سيد غازي

3 – شعر ابن اللبانة الداني , جمع وتحقيق الدكتور محمد مجيد السعيد

4 – الشعر في ظل بني عباد , محمد مجيد السعيد

5 – الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس , د. محمد مجيد السعيد

6 – المعجب في تلخيص أخبار المغرب , عبد الواحد المراكشي , وضع حواشيه خليل عمران